فان قلت فلعل التي في الآية معناها وموقعها قلت ليست مما ذكرناه في شيء لأن قوله خلقكم لعلكم تتقون
لا يجوز أن يحمل على رجاء الله تقواهم لأن الرجاء لا يجوز على عالم الغيب والشهادة وحمله على أن يخلقهم راجين
للتقوى ليس بسديد أيضا ولكن لعل واقعة في الآية موقع المجاز لا الحقيقة لأن الله عز وجل خلق عباده
ليتعبدهم بالتكليف وركب فيهم العقول والشهوات وأزاح العلة في أقدارهم وتمكينهم وهداهم النجدين
ووضع في أيديهم زمام الاختيار وأراد منهم الخير والتقوى فهم في صورة المرجو منهم أن يتقوا لترجح أمرهم وهم مختارون
بين الطاعة والعصيان كما ترجحت حال المرتجي بين أن يفعل وأن لا يفعل ومصداقه قوله عز وجل ليبلوكم أيكم أحسن عملا
وإنما يبلو ويختبر من تخفى عليه العواقب ولكن شبه بالاختبار بناء أمرهم على الاختيار فان قلت كما خلق المخاطبين
لعلهم يتقون فكذلك خلق الذين من قبلهم كذلك فلم قصره عليهم دون من قبلهم قلت لم يقصره عليهم ولكن غلب
المخاطبين على الغائبين في اللفظ والمعنى على إرادتهم جميعا فان قلت فهلا قيل تعبدون لأجل اعبدوا أو اتقوا
لمكان تتقون ليتجاوب طرفا النظم قلت ليست التقوى غير العبادة حتى يؤدي ذلك إلى تنافر النظم وإنما التقوى
قصارى أمر العابد ومنتهى جهده فإذا قال اعبدوا ربكم الذي خلقكم للاستيلاء على أقصى غايات العبادة كان أبعث
على العبادة وأشد إلزاما لها وأثبت لها في النفوس ونحوه أن تقول لعبدك احمل خريطة الكتب فما ملكتك يميني
إلا لحمل الأثقال ولو قلت لحمل خرائط الكتب لم يقع من نفسه ذلك الموقع هو قدم سبحانه من موجبات عبادته وملزمات
حق الشكر له خلقهم أحياء قادرين وخلق من قبلهم لأنه سابقة أصول النعم ومقدمتها والسبب في التمكن من العبادة والشكر
وغيرهما ثم خلق الأرض التي هي مكانهم ومستقرهم الذي لا بد لهم منه وهي بمنزلة عرصة المسكن ومتقلبه ومفترشه ثم خلق
السماء التي هي كالقبة المضروبة والخيمة المطنبة على هذا القرار ثم ما سواه عز وجل من شبه عقد النكاح بين المقلة والمظلة
بإنزال الماء منها عليها والإخراج به من بطنها أشباه النسل المنتج من الحيوان من ألوان الثمار رزقا لبني آدم
ليكون لهم ذلك معتبرا ومتسلقا إلى النظر الموصل إلى التوحيد والاعتراف ونعمة يتعرفونها فيقابلونها بلازم
الشكر ويتفكرون في خلق أنفسهم وخلق ما فوقهم وتحتهم وأن شيئا من هذه المخلوقات كلها لا يقدر على إيجاد شيء منها
فيتيقنوا عند ذلك أن لا بد لها من خالق ليس كمثلها حتى لا يجعلوا المخلوقات له أندادا وهم يعلمون أنها لا تقدر على نحو
ما هو عليه قادر والموصول مع صلته إما أن يكون في محل النصب وصفا كالذي خلقكم أو على المدح والتعظيم وإما أن يكون رفعا
على الابتداء وفيه ما في النصب من المدح وقرأ يزيد الشامي بساطا وقرأ طلحة مهادا ومعنى جعلها فراشا وبساطا ومهادا
للناس أنهم يقعدون عليها وينامون ويتقلبون كما يتقلب أحدهم على فراشه وبساطه ومهاده فان قلت هل فيه
دليل على أن الأرض مسطحة وليست بكرية قلت ليس فيه إلا أن الناس يفترشونها كما يفعلون بالمفارش وسواء
كانت على شكل السطح أو شكل الكرة فالافتراش غير مستنكر ولا مدفوع لعظم جرمها واتساع جرمها وتباعد أطرافها
وإذا كان متسهلا في الجبل وهو وتد من أوتاد الأرض فهو في الأرض ذات الطول والعرض أسهل والبناء مصدر سمي به
المبني بيتا كان أو قبة أو خباء أو طرافا وأبنية العرب أخبيتهم ومنه بنى على امرأته لأنهم كانوا إذا تزوجوا
ضربوا عليها خباء جديدا فان قلت ما معنى إخراج الثمرات بالماء وإنما خرجت بقدرته ومشيئته قلت المعنى
أنه جعل الماء سببا في خروجها ومادة لها كماء الفحل في خلق الولد وهو قادر على أن ينشئ الأجناس كلها بلا أسباب ولا مواد
كما أنشأ نفوس الأسباب والمواد ولكن له في إنشاء الأشياء مدرجا لها من حال إلى حال وناقلا من مرتبة إلى مرتبة
حكما ودواعي يجدد فيها لملائكته والنظار بعيون الاستبصار من عباده عبرا وأفكارا صالحة وزيادة طمأنينة
وسكون إلى عظيم قدرته وغرائب حكمته ليس ذلك في إنشائها بغتة من غير تدريج وترتيب ومن في من الثمرات
للتبعيض بشهادة قوله فأخرجنا به من كل الثمرات وقوله فأخرجنا به ثمرات ولأن المنكرين أعني ماء ورزقا يكتنفانه
وقد

وقد قصد بتنكيرهما معنى البعضية كأنه قيل وأنزلنا من السماء بعض الماء فأخرجنا به بعض الثمرات ليكون بعض رزقكم وهذا
هو المطابق لصحة المعنى لأنه لم ينزل من السماء الماء كله ولا أخرج بالمطر جميع الثمرات ولا جعل الرزق كله في الثمرات
ويجوز أن تكون للبيان كقولك أنفقت من الدراهم ألفا فان قلت بم انتصب رزقا قلت إن كانت من للتبعيض
كان انتصابه بأنه مفعول له وإن كانت مبينة كان مفعولا لأخرج فان قلت فالثمر المخرج بماء السماء كثير جم فلم قيل
الثمرات دون الثمر والثمار قلت فيه وجهان أحدهما أن يقصد بالثمرات جماعة الثمرة التي في قولك فلان
أدركت ثمرة بستانه تريد ثماره ونظيره قولهم كلمة الحويدرة لقصيدته وقولهم للقرية المدرة وإنما هي مدر
متلاحق والثاني أن الجموع يتعاور بعضها موقع بعض لالتقائها في الجمعية كقوله كم تركوا من جنات وثلاثة قروء ويعضد
الوجه الأول قراءة محمد بن السميفع من الثمرة على التوحيد ولكم صفة جارية على الرزق إن أريد به المرزوق وإن جعل اسما للمعنى
فهو مفعول به كأنه قيل رزقا إياكم فان قلت بم تعلق فلا تجعلوا قلت فيه ثلاثة أوجه أن يتعلق
بالأمر أي اعبدوا ربكم فلا تجعلوا له أندادا لأن أصل العبادة وأساسها التوحيد وأن لا يجعل لله ند ولا شريك أو بلعل
على أن ينتصب تجعلوا انتصاب فأطلع في قوله لعلي أبلغ الأسباب أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى في رواية حفص عن عاصم
أي خلقكم لكي تتقوا وتخافوا عقابه فلا تشبهوه بخلقه أو بالذي جعل لكم إذا رفعته على الابتداء أي هو الذي حفكم بهذه
الآيات العظيمة والدلائل النيرة الشاهدة بالوحدانية فلا تتخذوا له شركاء والند المثل ولا يقال إلا
للمثل المخالف المناوي قال جرير أتيما تجعلون إلي ندا وما تيم لذي حسب نديد وناددت الرجل خالفته
ونافرته من ند ندودا إذا نفر ومعنى قولهم ليس لله ند ولا ضد نفي ما يسد مسده ونفي ما ينافيه فان قلت
كانوا يسمون أصنامهم باسمه ويعظمونها بما يعظم به من القرب وما كانوا يزعمون أنها تخالف الله وتناويه قلت
لما تقربوا إليها وعظموها وسموها آلهة أشبهت حالهم حال من يعتقد أنها آلهة مثله قادرة على مخالفته ومضادته
فقيل لهم ذلك على سبيل التهكم وكما تهكم بهم بلفظ الند شنع عليهم واستفظع شأنهم بأن جعلوا أندادا كثيرة لمن لا
يصح أن يكون له ند قط وفي ذلك قال زيد بن عمرو بن نفيل حين فارق دين قومه أربا واحدا أم ألف رب
أدين إذا تقسمت الأمور وقرأ محمد بن السميفع فلا تجعلوا لله ندا فان قلت ما معنى وأنتم تعلمون قلت معناه
وحالكم وصفتكم أنكم من صحة تمييزكم بين الصحيح والفاسد والمعرفة بدقائق الأمور وغوامض الأحوال والإصابة
في التدابير والدهاء والفطنة بمنزلة لا تدفعون عنه وهكذا كانت العرب خصوصا ساكنو الحرم من قريش وكنانة
لا يصطلى بنارهم في استحكام المعرفة بالأمور وحسن الإحاطة بها ومفعول تعلمون متروك كأنه قيل وأنتم من أهل العلم
والمعرفة والتوبيخ فيه آكد أي أنتم العرافون المميزون ثم إن ما أنتم عليه في أمر ديانتكم من جعل الأصنام لله أندادا هو
غاية الجهل ونهاية سخافة العقل ويجوز أن يقدر وأنتم تعلمون أنه لا يماثل أو وأنتم تعلمون ما بينه وبينها من التفاوت
أو وأنتم تعلمون أنها لا تفعل مثل أفعاله كقوله هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء ولما احتج عليهم بما يثبت الوحدانية
ويحققها ويبطل الإشراك ويهدمه وعلم الطريق إلى إثبات ذلك وتصحيحه وعرفهم أن من أشرك فقد كابر
عقله وغطى على ما أنعم عليه من معرفته وتمييزه عطف على ذلك ما هو الحجة على إثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وما يدحض
الشبهة في كون القرآن معجزا وأراهم كيف يتعرفون أهو من عند الله كما يدعي أم هو من عند نفسه كما يدعون بإرشادهم
إلى أن يحزروا أنفسهم ويذوقوا طباعهم وهم أبناء جنسه وأهل جلدته فان قلت لم قيل مما نزلنا على لفظ
التنزيل دون الإنزال قلت لأن المراد النزول على سبيل التدريج والتنجيم وهو من مجازه لمكان التحدي وذلك
أنهم كانوا يقولون لو كان هذا من عند الله مخالفا لما يكون من عند الناس لم ينزل هكذا نجوما سورة بعد سورة وآيات عقيب
آيات على حسب النوازل وكما الحوادث وعلى سنن ما نرى عليه أهل الخطابة والشعر من وجود ما يوجد منهم مفرقا

Copyright © King Saud University